حول الرقيق في المغرب ما قبل الاستعمار

محمد الناجي

لم يكونوا أبدا سودا، كما يفترض المثل «يولدون بيضا ويبقون بيضا طوال حياتهم اذا لم تعرضهم اعمالهم لدفىء الشمس»، هذا ما لاحظه باستغراب الراهب بوارى(Poiret)عند سكان شمال افريقيا وهو يصل إلى الجزائر (1). أما الزنوج فقد كانوا — على عكس هؤلاء — عبيدا في خدمتهم. لكن عبوديتهم لم تكن تحمل من حالتهم إلا الاسم، ذلك، لأن الليونة كانت سمة تعامل أسيادهم معهم (2). هذه، ارتسامات جل من زاروا مغرب ما قبل الحماية.

وفي المدن الكبرى يمكن أن نذهل للعدد الكبير من العبيد الذين كانوا في خدمة كبار التجار (3) و عند عائلات القواد(4). لقد كان العبد جزءا مدمجا في المجتمع المغربي وثقافته (5)، رغم كون امتلاك العبيد — بعدد كبير — كان امتيازا للأغنياء (6)، ويشهد على ذلك أنه في القرن السابع عشر كان الجيش الحرفي — في أغلبه — مكونا من السود(7).

---

(1) Abbé POIRET, Lettres de Barbarie1785- 1786 Le Sycomore , Paris 1980. 74 ص

(2) Abbé poiret: Lettres.... 145ص

(3) AUBIN, Eugène ; LeMaroc d'aujourd'hui A. colin, paris 1922, 9ᵉed. 58 ص

Jerome et Jean THARAUD: Fez ou les bourgeois de l'islam. plan, paris 1930

حسب هؤلاء الشيء الذي يثير انتباه الاجانب في المنازل الفاسية هو كثرة العبيد. ص:25

(4)المختار السوسي : المعسول. الدار البيضاء. 1961 — 1960 الجزء 14 ص 116

(5)المختار السوسي : المعسول ،الجزءI ص 153

(6) Mohamed EL Fasi et Emiles Dermenghem; « Nouveaux comptes fasis. 13 من أصل 21 تتحدث عن العبيد

et Michaux Bellaire; Description de la ville de Fès A. M n°11, ERNEST leroux, paris 1907, p 320.

(7) الناصري : كتاب الاستقصاء الترجمة الفرنسية الأرشيف المغربي رقم 9 باريس 1906، ص 74 وما يليها. لكن هذا الموضوع لا يهمنا هنا

إن معاملة العبيد في هذا المجتمع كانت، على ما يبدو، مطبوعة بالانسانية إذا ما قارناها مع معاملة العبيد المصدرين للعمل في الزراعة في أمريكا (8)، والتي كانت تتسم بالقسوة. إذن على خلاف ما جرى في الجانب الاخر من المحيط الاطلسي، فان العبد — هنا — كان جزءا من العائلة حتى أن التصاقه بها يذهب في بعض الاحيان الى رفضه الحصول على الحرية (9). إضافة إلى كونه في بعض المناطق يجد منفذا للحصول على المعرفة إذا ما مكنه ذكاؤه من ذلك (10). وهذا ما دفع المغيلي عند مروره بفاس أن يعتبر عبيده في مستوى مناقشة علماء المدينة (11) .

من الأفيد أن نتساءل — رغم توافق الشهادات بخصوص هذه النقط — حول حقيقة الأمر، وبعبارة أخرى من الضروري طرح الأسئلة التالية: هل كانت معاملة العبيد حسنة؟ وقبل هذا ماذا نعني بالمعاملة الحسنة أو السيئة؟

بالنسبة لنا لا تنحصر المعاملة السيئة في الاستغلال الوحشي واستعمال السوط وغيره من وسائل التعذيب (12)، بل تفهم انطلاقا من معنى أوسع، كل عمل يمكن أن ينتج عنه ضرر للعبد ماديا كان أم معنويا(13).

إنه من الصعب، ونحن ننطلق من الحالة الراهنة للتوثيق، أن نحصل على معطيات كافية وصحيحة قصد معالجة هذه المسألة. إضافة إلى هذا، نرى أن التاريخ بالمغرب قليلا ما يتطرق، إن لم نقل لا يتطرق أبدا، للحدث اليومي الذي نعتبره ثمينا، وهذا له أكبر الأثر على عمل من هذه الطبيعة (14).

---

(8) James GRAY JACKSON; De la Description de l'empire du Maroc
m Riley; Tome II p80

(9) Riley Janes ; Naufrage du brigantin américain le commerce perdu
sur la cote occidentale d'Afrique, au mois d'aout 1815. Paris 1818 ,
tome II ص 160
etMoulieras Auguste; le Maroc inconnu. paris 1899 t.II ص 63 — 64

(10)المختار السوسي : المعسول ،الجزء 12 ص 91

(11)ابن عسكر : دوحة الناشر

التزجمة الفرنسية

GENOVESSE Eugène :« Le traitement des exlaves dans differents pays : problème d'application de la mèthode comparative » En.W.S. Hint 8 sidnez ; a exclave : facteur de production l'économie Politique de l'exclavage. Dunod Paris 1982. P. 173

رفض العلماء النقاش معهم.

(12) نعتمد في هذا

(13) ان المشكل الاقتصادي لا يهمنا هنا، فالتساؤل المتعلق بوجود او غياب دور انتاجي للعبيد، تساؤل مهم بالنسبة لتحليل المعالجة نفسها. لكن يجب ان يعالج هذا في موضوع مستقبل.

(14) ان اعمال المؤرخين لاتهتم بهذا الموضوع لكونها تركز على الاحداث، ولكن الملاحظ هو ان الفرنسيين لم يكتبوا شيئا كثيرا عن هذا الموضوع، فبيبلوغرافيا اندريه آدم لا توفر الا اربعة مراجع (انظر الأرقام 1494، 1506، 1669 و2170)

كيف يمكننا الحديث عن العبيد إذا لم تكن بين أيدينا معطيات مدققة عن حياتهم اليومية؟ وحتى في هذا المجال عن أي عبيد نتكلم: عن البيض أم السود؟

عن السود الذين يكونون ــ بطبيعة الحال ــ الأغلبية الساحقة. وهي أغلبية ليست متجانسة، بل تحتوي على عدة فئات، فهناك الرجال والنساء، وهناك البدو والحضر، والمشتغلون بالمنازل والعمال المنتجون، وإضافة إلى أولئك، هناك من حملهم نجاحهم إلى الأعلى، في مجتمع كانت الدولة في تحولها منذ القرن السادس عشر ترتبط باشخاص دون جذور قبلية. لكن من حالفهم النجاح يوجدون خارج إطار عملنا. ورغم هذا فان الغيوم لا تنجلي، إذ حتى بين بقية الاغلبية المستبعدة ــ الحاملة لهذه الصفة ــ فتحليل المعاملة يظهر اختلافا ناتجا عن تباين الفئات. انطلاقا من هذه الاعتبارات، يمكن القول إذن أن هذا التفكير لا غرض له إلا طرح المشكل.

يمكن القول في البداية أن القساوة كانت سمة التعامل مع العبد(15) في بعض الأحيان ولو لاسباب بسيطة(16) وتبلغ المعاملة أوجها في القساوة حيث تصل إلى القتل (17). لكن الشهادات من هذه الطبيعة تنذر نظرا لنفور الرواة من سرد أفعال متناقضة مع الشريعة الاسلامية التي تعتبر رحيمة نسبيا اتجاه العبيد(18).

هناك بعض الشهادات الغير المباشرة والتي تعتبر بليغة في هذا المجال نظرا لكونها تتطرق لهروب العبيد. فهذا الهروب في مجتمعات أخرى ليس مرادفا للحرية فقط، بل يؤدي عند نجاحه إلى تكوين مجتمعات هامشية مكونة من الهاربين (19).

لقد كانت هذه الكيانات تكون مناطق معزولة بإمكانها أن تصلح لاستقبال العبيد الذين اثقلت كاهلهم قساوة أسيادهم. في المغرب، حيث لم تتم الأشارة حسب معلوماتنا إلى هذه الحالات، المشكل يصبح مغايرا لأن العبد الهارب، اذا لم يلق عليه

---

(15) بعض العيوب التي لها تأثير على ثمن العبد تنتج بدون شك عن سوء المعاملة (مثلا : الكي). محمد بن الحسن الاسبياني، جامعة القاهرة، 1954، مجلد 1، ص 190

(16) رسالة من الحسن الاول الى فرجي بتاريخ 70 .08 ،1299 ه المكتبة الملكيةالرباط.

(17) مثال ذلك الشيخ الدموي الذي يقتل احد عبيده كمعاقبة له على هروبه. السوسي : المعسول الجزءXIVص 117. او القائد الذي يقتل أُمَتَه ويترك جثتها للطبيعة، الجزءXXص 149، وآخر يريد ان يتأكد من فعالية سم فيجربه اولا في عبده. الجزءXXص 226.

(18) ص 26 Encyclopédie de l'islam. Nouvelle édition t.I ★ article A.B.D

(19) ★ richard price; Les sociétés d'esclaves marrons (مجتمعات العبيد الشاردين في Mintz، العبد= عامل الانتاج...ص 87 وكلمة الشارد آتية من Marron المشتقة من الاسبانية (Cimarron) وتعني الحيوان الخائف الهامش رقم 4 ص 111).

القبض، متأكد من سقوطه ثانية بين يدي سيد جديد (20)، ومن المحتمل أن يواجه مشاكل أخرى. ألم يوص شيخ اولاده بعدم استضافة وإجارة ثلاث: قاتل وعبد آبق وهارب من سلطة السلطان(21). هذا القول كيف أن صاحبناكان معرضا لرؤية سيئة إذا عثر عليه فخطر فعله كبير ذلك أن قيمته البضائعية تنزل وهذا ما لا يحظى برضى سيده (22). لكن إطلالة على الوثائق المتعلقة بالرق تظهر لنا كثرة حالة الهروب رغم الأخطار المحيطة بها، وهذا ما يمكننا من افتراض سوء معاملة الزنوج(23). ولا غرابة في ذلك في مجتمع يحكم فيه على هذه الفئة بالانحطاط(24). فابن خلدون يراها أقرب من الحيوان الى الانسان(25). وقد كان لليون الافريقي نفس الرأي في هذا الموضوع، اذ يقول: بان السود هم حيوانات بدون عقل ولا ذكاء ولا تجربة، وليس لهم أية فكرة عن أي

---

(20)في القرن 19 لم يكن المخزن، على عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن، والحسن الاول، يرجع عبدا فارا الى سيده سواءا كان هذا السيد في السلطة او خارجها، بل كان يدمجه في الجيش (رسالة محمد الصفر الى الحسن الخليفة 11 /10 /1286 لكن العبيد كانوا يفرون حتى من الجيش على عهد مولي عبد الرحمان كما تشهد بذلك الوثائق. فعندما يفر من سيد لا ينتمي الى السلطة فان المخزن يعوض له ثمن العبد ويحتفظ به (رسالة محمد الصفر الى الحسن الخليفة بتاريخ 27 /10 /1286 ـ المكتبة الملكية).

(21) المختار السوسي : المعسول، الجزء 17 ص 13.

(22) لكي يتم التعرف على العبد الفار بسهولة، فان السيد يلصق باذنه حلقة من الحديد. (الونشريسي، الارشيف المغربية مجلد 19 باريس 1909 ص 438 رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن الى محمد عشعاش بتاريخ 11 /5 /1248 الخزانة الملكية، وتتعلق بتخفيض قيمة البضاعة (العبد) انظر الاصل للاسباني مجلد 1، ص 178.

(23) من محمد بن عبد الرحمن الى السلطان مولاي عبد الرحمن 1255.06.28
من السلطان مولاي عبد الرحمن الى بوسلهام 1258.02.22
الحسن بن محمد بن عبد الرحمن الى عمارة بن عبد الصادق 1288.02.22
عمر بن احمد الشيظمي الى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن 1290.07.05
موسى بن احمد الى مولاي عثمان .1291.04.18
المكتبة الملكية

(24) ابن زيدان، اتحاف اعلام، الناس بجمال اخبار المكتبة الملكية حاضرة مكناس.

(25) ★ Ibn KHaldun, Muqaddima, in: Joseph M.
Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du 8e siecle(Bilad al- Sudan) ed.
C N R S , Paris 1975- P351.

ان اساس هذا الحكم يعتمد تفسيرا طقسيا (Climatique).فشمال وجنوب البلاد منطقتان : الجنوب محرق والشمال مجمد، فناس هاتين المنطقتين غير متوازنين، فبينما في المناطق المعتدلة (العالم المتحضر وقتئذ، ص 358) التقنيات والقوى المنتجة ليست متطورة فقط، بل «الناس انفسهم اكثر توازنا من حيث هيئاتهم او من حيث لونهم او من حيث تقاليدهم ...» وابن خلدون يقرب هذا من الآية القرآنية «كنتم خير أمة اخرجت للناس» ص (357).

شيء كان ويعيشون كحيوانات بدون قواعد وقوانين (26). وقد كان الزنوج سواء منهم العبيد أو الحراطين (أي المتحررين من قدماء العبيد، لغويا الكلمة تعنى أحرار من الدر جة الثانية) في موقع اجتماعي ثانوي وموضع احتقار عميق كما يظهر ذلك في الأبيات التالية:

يقدم العبد على الحرطاني (27) والكهل قبل الشيخ والغلمان
وليس تجويز لحر أن يقيم بين الحراطين بشرع مستقيم
اذ المجانسة في الامور شرط مسلم لدى الخبير
وللضرورات أمور بالخصوص والمرء لا يحتاج معها للنصوص
ومن أقام لهم الحرطاني عليهم العود مدى الزمان
لأنه أكثر خلق الله سخافة وزائد المناهي
ولم أشم من جنسه من اصطفى هيهات منهم أن يرى خل وفى
ان كان لابد له من أشغال فليكنس الزبل لخيل وبغال
هذا الذي ورث عن أجداده لا يرث الجد سوى أولاده
ولا ترج الخير من فرع دني يمنعه الطبع من الوصف السني
والخير في معادن الاخيار يطلب لامن معدن الاشرار
هذا اذا اسود وان اغبر لا يدن من (الطبلة)ما بين الملا
لان هذا منصب شريف اولى به الابيض والظريف
وكل لون من سوى البياض ينبذ عند الشرب بافتراض
حتى الذي اسود من الاواني بأصله أو عارض الادران
فواجب إلغاؤه والباقي من غير ما ذكرت للحذاق
ذا مذهبي ولسواي مذهب وللفتى اختيار ما ينتحب

ورغم ارتباط المختار السوسي بمبدأ المساواة فانه يؤكد لنا من جهة أخري بانه لا يجب بتاتا وضع الثقة في العبد من أجل الاعتماد عليه في تسيير شؤون الاملاك، لأن السرقة هي طبيعة مرتبطة به (28).

(26) ★ Jean Léon L'Africain, Description de l'Afrique trad. A Epanlard, Paris 1965. Tome I P 65.

(27) وقد علق المؤلف على هذا كالتالي: «العبد هو الذي لا يزال مملوكا، والغالب ان يلازم الادب والاخلاق وان يكون محبوبا عند مواليه بخلاف الاسود الذي كان اجداده محررين فانه، لحريته، لا ينظر اليه كالعبد فيحتقر احتقارا تاما وهكذا تلك البيئة اذ ذاك وهذا هو الذي يسمى الحرطاني وهو تصحيف الحر الثاني، كان مقصودهم الحر رقم 2 فهناك مئات من الحكايات فيها تنذر بهؤلاء. فأين محرر العبيد في امريكا ليفرأ، وهذا كله يخالف الاسلام الذي ينظر هذه النظرة بل الناس سواء ولا عبرة بالالوان المعسول، الجزء 5 ، ص 192 — 193.

(28) المختار السوسي : المعيسول، الجزء I، ص 327 و 345 .لقد كان الزواج من المرأة السوداء يعتبر عارا.

من خلال العناصر السابقة يظهر ان العبد حتى اذا ما تحرر يبقى مثقلا بسلاسله (29). لأن التحررلوحده يطرح مشكلا ذلك انه رغم كون الاسلام يشجع على القيام به ورغم ممارسته من قبل كثير من المسلمين لا يؤدي حتما الى الحرية ولو كانت هذه الاخيرة شكلية. فحتى لو تحرر من طرف سيده فمن الممكن ان يسترجع الى عبوديته من طرف افراد آخرين من المجتمع. من الصعب ان نتخيل كائنا لا يملك شيئا ينجح في الاتيان بحجة تحرره التي تقع على كاهله حين يضع شكاية أمام ذوي الأمر(30). فانعدام الثقة والخوف هما قسمة هذه الفئة الاجتماعية وهذا ما يظهر لنا بطريقة واضحة على مستوى مسالك المتاجرة بالعبيد.

لقد كان الزنوج يكونون بضاعة أساسية في التجارة مع افريقيا السوداء(31). ويقدرMaunyعدد المستوردين من الرقيق الى المغرب العربي ب 20 ألف سنويا (32)، يجتازون الصحراء على الأرجل في ظروف قاسية لكي يباعوا في معارض كبيرة تقام

---

(29) تنظر المعسول، الجزء 10، 92، ويجب الاشارة ايضا الى ان السود كان يسكنون احياءا خاصة بهم مثال ذلك صويرة.

(30) العباسي احمد بن محمد السملالي : اجوبة. (1737) مخطوط ص 195.
وكذلك :
رسالة من مولاي محمد الى الحسن بن محمد بن عبد الرحمان 1288.12.26
رسالة من محمد الصفار الى الحسن بن محمد بن عبد الرحمان ؟. 1286.10
الخزانة الملكية.
وترجمة القايد الناجم عند المختار السوسي، لقد تعرض في ليلة واحدة لمحاولتين لاختطافه. المعسول، الجزء 20 ص 10 — 12.

(31) الاستيراد مشار اليه منذ القرن التاسع الميلادي.
اليعقوبي، كتاب البلدان عند ص 49

(32)
★ R. MAUNY; Tableau geographique de l'ouest africain au moyenage, d'après les sources écrites la tradition et l'archéologie. Meni IFAN N° 61. DaKar ص 379
وهذا يعطي مليونين في القرن الواحد، وحسب المؤلف فان هذا اقل تقدير.
وقد ظل الاستيراد مهما حتى بعد القرون الوسطى، في سنة 1798، ويشير JaKson الى قافلة مكونة من اكثر من 700 عبد في Description لجاكسون، ص 73. وفي نهاية القرن 18 تراوحت صادرات العبيد من المغرب واقاليمه الصحراوية ما بين 7 آلاف و 8 آلاف فرد في السنة. انظر
★ Francois Renault et Sérge Daget, la traité des esclaves en Africain; Description ... P 93 t.l.

دوريا(33)، وفي أسواق المدن الكبرى كفاس ومراكش حيث كانت هناك مساحات خاصة تحجز لهذا الغرض(34). إلا أنه في أواخر القرن التاسع عشر، ومع ضعف التجارة عبر الصحراء، فان استيراد العبيد صار يضعف يوما بعد يوم حتى انقرض مع الاحتلال الفرنسي لتومبكتو (35).

في اطار هذه الوضعية الجديدة، فان التموين بالعبيد أصبح يتم أساسا من الأحتياط المتواجد داخل البلاد، الامر الذي أدى إلى انعدام الأمن بالنسبة للزنوج سواء منهم العبيد أو المحررين. ومن بين الوسائل التي تم اللجوء اليها في هذا الصدد عملية إعداد وتربية الأزواج من العبيد من أجل تزويد الأسواق من نتاجهم. فهذه عادة قديمة جدا سبق لليون في القرن 16 (36) أن أشار إليها وجاكسون (37) وبوتوكى في القرن الثامن عشر

---

(33) خصوصا موسمي سيدي أحمد أموسى في تازروالت واصلك عند قبيلة ايت بوبكر، فهنالك كانت المتاجرة في العبيد تجري تحت ظل شجرتين معروفتين الى وقتنا هذا.
المختار السوسي، المعسول، الجزء 20، ص 119 و 132 وكذلك :
J.Léon l'Africain; Description...P 93.t.I.

(34) ★ E. AUBIN; le Maroc d'aujourd'hui ....

(35) ★ E. AUBIN; le Maroc .... ص 317
لقد ألغي الرق في المستعمرات الفرنسية اثر صدور مرسوم بمثابة قانون بتاريخ 27 ابريل 1848. ان في المغرب لم يوجد اي نص تشريعي نظرا لاعتبارات اجتماعية وسياسية، ولقد اكتفت الحماية باجراءات ادراية ضد المظاهر الاكثر اثارة (مثلا : المتاجرة العلنية بالعبيد)

★ J. LAPANNE- Joinville; REVUE marocaine de droit 1952.P 153.

★ P. Decroux, Gazette des tribunaux du Maroc, 1944. P11.

في الستينات بعثت الامم المتحدة باستمارة حول مشكل الرق الى كل البلدان.
ولقد اثبتت بعض التحريات الاولى ان الرق ما يزال معمولا به في بعض المناطق منها العربية السعودية، ولم يجب عن هذه الاستمارة 39 بلدا من بينها المغرب (محمد عواد، تقرير عن الرق، الامم المتحدة، نيويورك 1967، ص 9 و ص 127).

(36) J. Léon l'Africain, Description...t II. ص 424 من

(37) JaKson ; Description
فحسب هذا المؤلف، فان المور (Maures = الموريطانيين) ليسوا كلهم ودودين مع عبيدهم. «وعلى العكس البعض وخاصة من الموريطانييت، اكثر مستوة على العبيد اذ يشترونهم لاغراض دنيئة وبحسسية. فهم يزوجونهم لينتجوا الاولاد لبيعهم في السوق العمومية، واحيانا يبيعون الاباء والامهات. ولقد حضرت بعض هذه المبيعات حيث يعرض العبيد كما تعرض البهيمة الشاردة وذلك حتى يتأكد من قيمتهم تبعا لهيأتهم .

(38)، وقد اتسعت كثيرا في القرن 19. وقد لمح المختار السوسي بأنه في الجنوب كانت بعض العائلات تملك مابين 50 و 70 زوجا من العبيد، ومن الممكن أنهم كانوا يستعملون لهذا الغرض (39). وهناك مصدر آخر يصعب قياس أثره وهو بيع الأطفال من طرف أبائهم. وهذه الطريقة لا تتعلق فقط بالزنوج ولكن تمتد أيضا حتى إلى الجزء الفقير من السكان البيض لضيق وسائل عيشهم أيام الأزمات (40).

ويمكن الاشارة الى شكل آخر من أشكال التموين حيث أصبحت عملية خطف العبيد من بين المصادر المهمة لتزويد الأسواق بهم وكونت في هذا الصدد آفة حقيقية في

---

(38) Jean potocki; Voyages en Turquie et en Egypte en Hollande au Maroc. FAYAR, Paris 1980

خلال عبورنا للساحل الأطلسي الشمالي (نهاية القرن الثامن عشر. فقد لاحظنا في كل البلدان التي عبرناها في الايام الأخيرة أن سكان الدواوير يملكون عددا كبيرا من العبيد نساءا ورجالا. فقد قال أحد سكان الجبال ليهودي «ها هي ذي العبدة التي تلبي شهواتي أكثر من امرأتين، واستثمرها أكثر من بقرتيين،فكل تسعة أشهر تنتج ولدا وعندما تصل الأربعة أو الخمسة أسوقها الى المدينة لأبيعها في السوق بأحسن ثمن» إن الاحتكار الجشع مناف لقانون البلد ص 233. إن كثرة العبيد في المغرب وهي غريبة نسبيا. يمكن تفسيرها بتوزيع عبيد البخاري من طرف السلطان سيدي محمد بن عبد الله.الناصري، كتاب الاستقصاء الارشيف المغربية، مجلد 17، ص 270 و 275

(39)المختار السوسي، المعسول، الجزء 17 ص 270 و 275

(40) لقد اتخذت هذه العملية حجما خطيرا تحت الاحتلال البرتغالي للشواطىء المغربية في القرن 16 م

B. Rosenberger et H. Triki; « famines et epidémies au Maroc du XXI° Siècles» Hesperis- Tamuda 1973 ص 135

نبيع العبيد للأجانب ذكر كذلك في القرن 19م الناصري، كتاب الاستقصاء الترجمة الفرنسية A.M voIx. ص 3270. وذلك وقت مجاعة 1295 ه. ص 320

والمراسلات المخزنية تتطرق لبعض الحالات :

رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن الى عبد القادر اشعاش 10. 8. 1266 وهي تحكي عن طفل دفع كرهن لتاجر انجليزي من تطوان.

وانظر كذلك رسالة للسلطان مولاي الحسن يذكر فيها :«وبأن الناس (في إقليم سوس) كيف أراد الله من قبل المسبغة يبيعون أولادهم ويأكلون ثمنهم، ويهجمون على بعضهم بعضا بقصد اكل متاعهم، واشباع بطونهم»

مجموعة الوثائق. مديرية الوثائق الملكية. الرباط 1976، الجزء الثالث ص 499 وكذلك نازلة زنجية باعت بنتها أيام المسبغة : رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن الى محمد اشعاش 1243. 12. 02، ربما كان ذلك في مجاعة 1240 ه انظر ابن زيدان : اتحاف الجزء الخامس ص 124. وأخير رسالة بين المذكورين 1252. 1106. الخزانة الملكية.

هذا المجتمع المضطرب في أواخر القرن التاسع عشر (41)، كما نراه عبر الرسالة التالية الموجهة من قاضي مراكش إلى السلطان الحسن الأول (42):

«القاضي مولاي المصطفى بان مما عظمت بلواه غصب أحرار المسلمين من هاتيك الجبال ما بين نساء وصبيان وبيعها على سبل الاسترقاق لكثرة رغبة أهل الجاه أضفى الحال، وغلب الطمع الى بيع ابناء المنشية بسوق المدينة.......»

وقد اتخذت هذه العملية عدة اشكال حسب المناطق وحسب الأشخاص الذين يتاجرون في هذا الميدان.

ويروي عبد الملك المتوكي حسب المختار السوسي عدة معطيات حول هذه الظاهرة: «وكم جوار أتوصل بها من عند الذين انتصبوا لجمع بنات الناس السود، من سوس إلى الحوز، أقدمها اليه (إلى الكلاوي)، فلا يزال ابراهيم بن صالح ازاء تزنيت، ومولاي أحمد من آل الشريف الهشتوكي، وابن حيدة في هوارة، وعلى الامزالي من اداوزال، ويحيا من أكفاي، وابن حميدة في سهب العتروس السباعي، بن التهامي القرشي ازاء امينتانوت ــ يتابعون لي المتخيرات من الجواري ــ وهؤلاء هم النخاسون المشهورون اذ ذاك ببيع العبيد أو من أرادوا أن يسموهم بسمة العبيد والاماء من أولاد الاحرار وبناتهم، وإن لم يكونوا إلا أحرارا أقحاحا، فيسربون ذلك يدا ليد، تبتدىء السلسلة من يد ابراهيم بن صالح، إلى أن تنتهي إلى يد التهامي بن القرشي ولا يسيرون بقوافلهم الا ليلا بحراس، ثم

(41) وفي رسالة مطولة للسلطان الحسن الأول أحسن تعبير على ذلك:«ومن المنكر الذي لا يسع التغافل عنه والتساهل في أمره هذا الخطب النازل الوقتي الذي هو المجاهرةباستعباد الاحرار واسترقاقهم بدون وجه شرعي فان المستعبد لحر هو احد الثلاثة الذين لا يقبل الله منهم صلاة...»
انظر ابن زيدان : اتحاف، الجزء الثاني ص 230

(42) في تاريخ 01. 9. 1310، كناش 200، الخزانة الملكية، الرباط

(43) M. Bellaire; « une histoire de rapt» A.M.vol V Paris 1905. ص 436
هذا المرجع يعطي بعض المعلومات عن شمال المغرب فيما يتعلق باختطاف البنات او النساء، فحسب المؤلف فان هذه العمليات لا تكون دائما مصحوبة بالعنف وانما تستعمل الحيلة في بعض الاحيان، فالغاصبون يستعملون الزواج للحصول على الضحية التي اختاروها. ويجب ان تؤكد هنا ان العنف ليس بغائب. انظر رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن الى عبد السلام السلوي 29. 04. 1254 والتي عن شخص جرحت زوجته وقتل ابنه الاكبر وهذا من اجل اختطاف ابنته.
وكمثال على ذلك عبد سرق من طرف صديق له بمراكش فوجد نفسه بشفشاوة عند شخص آخر باعه في قبيلة هوارة بسوس ثم بيع مرة اخرى في موسم سيدي احمد او موسى بتازروالت ومن جديد في ماسة ولم يجعل حدا لهذه الحلقة الا بهروبه وانخراطه في سلك العسكر:
رسالة من القايد حميدة بن علي الى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن 06. 05. 1290 الخزانة الملكية ــ الرباط.

من التهامي القرشي يكون البيع لقواد الحوز ولاثرياء الحواضر...(44)»

هذه الحالة دفعت بالسلطة المركزية الى التنديذ بها دون إمتلاك الوسائل لمحاصرتها(45)،لأن هذه الممارسات لم تكن فقط منافية للدين بل للدولة ، راجع لحالة اللاسلم التي تخلقها وسط جزء من السكان، كما أنها تشكل هروبا من الضريبة التي يخضع لها كل تبادل تجاري لكون البيع يتم خارج الاماكن المخصصة له (46). ولكن رغم هذا الموقف، ففي بعض الاحيان ينصرف رجال المخزن إلى أخذ عبيدهم بالقوة من عند السكان (47).

إن التبادل التعسفي للزنجي ليس له آثار فقط على افتقاد الامان المادي أو على تحرر غير مكتمل بل يمتد إلى الحياة الاسروية ذلك أن البيع والاختطاف كثيرا ما يحرم العبد من حياة اسروية عادية ويبعده عن ذويه (48).

لما يمكن أن نتطرق كخلاصة مؤقتة؟ إن المعاملة، حسنة كانت أم سيئة، تشكل كلا متماسكا. التطرق بشكل عابر الى النوع الثاني من المعاملة انطلاقا من أحداث ربما منعزلة لا يعتبر طريقة موضوعية. لكن أغلب الكتاب لم يتحدثوا إلا عن المظاهر الايجابية للمشكل، لقد رأينا من المفيد أن نضع الأصبع على المظاهر السلبية وذلك لفتح النقاش (49).

محمد الناجي

---

(44) المختار السوسي، المعسول، الجزء 20، ص 82 — 83.

(45) هنالك حالة تعطي فكرة عن ذلك، وتتعلق بشخص: محمد مولى الركوبة قبض عليه عدة مرات حسب الوثائق، في مراكش، والدار البيضاء والرباط ورغم ذلك يجدد محاولاته:
رسالة من عبد الله بن محمد الزيادي الى السلطان الحسن الاول 07. 11. 1301.
رسالة من السلطان الحسن الأول الى عبد الله بن محمد الزيادي 25. 08. 1298.
الخزان الملكية — الرباط

(46) هنالك رسالة من محمد بن احمد الخضر الى الوزير محمد بن العربي تعبر عن اهتمام المخزن بهذا البيع اللاشرعي في السوق السوداء. 13. 08. 1301، الخزانة الملكية الرباط.

(47) تحت قيادة الكنتافي في تزنيت حسب المختار السوسي، المغسول، الجزء 4، ص 209 — 210، الجزء 3، ص 265، و 14، ص 113 — 114 و 142.

(48)العباسي :اجوبة ص 188.
وحسب الوصف الذي يعطيه Moulieras عن سوق الرقيق في جبالة فان اغلبية العبيد المعروضين للبيع ليس بينهم علاقات عائلية
le Maroc inconnu t.II. ص 62.

(49) لم نتطرق لمعامل السكر في عهد السعديين التي كانت تستخدم العبيد في نفس الظروف التي كانوا يستخدمون فيها بامريكا وذلك لعدم تكرر هذه التجربة بعد السعديين.